فلسطينية ـ فلسطينية، فلسطينية ـ سورية، فلسطينية ـ لبنانية، لبنانية ـ سورية، لبنانية ـ لبنانية. فنما الاغراء بخوض المعارك الداخلية ليس لأنها ملحّة فحسب، بل وبسبب الوهم بإمكانية الفوز فيها، مما غذّى، بدوره، اللجوء إلى استخدام القطاعات الكبيرة الثقيلة التسليح لأنها قادرة، نظرياً، على حسم الموقف المحلي أو ردع الخصوم الصغار. ويفسر ما سبق، إلى حد بعيد، ميل القيادات السياسية ـ العسكرية الفلسطينية، منذ عشر سنوات، نحو خوض الصراعات السياسية (وبأوجهها العسكرية طبعاً) في داخل لبنان ونحو تكريس الجهود المادية الكبيرة لذلك الغرض، طوعاً أم اضطرارياً. والحق يقال ان كثيراً من هذه الصراعات الداخلية كان لابد من خوضها، حين وجدت حركة المقاومة نفسها في موقع دفاعي، إلا أن التنظيمات الفلسطينية وقعت في مطب تنظيم نفسها ونشاطها على أساس خوض الصراعات الداخلية أكثر منها على أساس الصراع مع اسرائيل.

يلاحظ من تجربة الاستخدام الفلسطيني للتشكيلات الكبيرة المزودة بالاسلحة الثقيلة أن القوات الفلسطينية باتت عاجزة عن القتال الفعّال سوى في مناطق وُجد فيها حلفاء أو تأمن لها غطاء عسكري ـ أمني من قبل طرف قوي آخر، كمنطقة البقاع الغربي قبل صيف العام ١٩٨٢ ومنطقة الشوف بعده، اللتين وقعتا تحت المظلة السورية. أما حين وجد خصم قوى قادر على ردع أو حتى هزيمة القوات الفلسطينية عند اقترابها من مناطقه، كـ«القوات اللبنانية» أو اسرائيل، ظهر الارتباك وفقدان التجانس والتنظيم وتم اللجوء إلى خطوط تماس ثابتة. أي أن القوات الفلسطينية تبنت شكلاً وتسليحاً وتكتيكاً أدت الى ابطاء حركتها وزيادة تعرضها الى الشلل من قبل أي عدو يمتلك الوسائط المضادة المتفوقة، كماً وتكنولوجياً (إضافة الى تفوق التدريب والتنظيم)، مما عطّل عليها بالتالي العمل ضد أعداء من هذا النوع أو في مناطق لا تتمتع القوات الفلسطينية فيها أصلاً بدرجة من التفوق.

وضعت القيادة الفلسطينية نفسها في مأزق، اذاً، حيث عجزت عن خوض القتال بالقوات المتوفرة لديها ضمن ظروف المواجهة مع اسرائيل بسبب تمسكها بشكل عسكري غير قادر على العمل ضمن تلك الظروف. ومالت حركة المقاومة الفلسطينية، منذ منتصف السبعينات وخاصة بعد العام ١٩٨٢، نحو خوض القتال فقط مع الخصوم الذين أمكنت مواجهتهم وهزيمتهم بواسطة القوات المجحفلة، وتجنب القتال الرئيس مع أي خصوم آخرين. وهكذا وجدت حركة المقاومة نفسها تخرق مبدأ المحافظة على الهدف، من خلال مقاتلة المجموعات العربية وليس اسرائيل.

لكن لم ينشأ هذا الوضع صدفة، ولم ينتج عن خلل فني أو سوء توقع فحسب، بل عكس رؤية سياسية ومنهجية متكاملة. فيبدو وكأنه تم تبني النمط العسكري الثقيل، نهاية، لأنه يتجنب، في الواقع، ضرورة خوض القتال. بل ويدل التمسك بالنمط الثقيل الذي يمنع مجابهة أي عدو يتفوق بالاشكال الثقيلة، على **عدم الرغبة** في مواجهة ذلك العدو عسكرياً أصلاً. وإلا فلماذا لم يتم التخلي عن الاشكال غير المناسبة لصالح الاشكال والتكتيكات الناجعة ضد العدو؟ وقد نجحت تجربة العودة الى النمط الغواري الخفيف نجاحاً لامعاً في جنوب لبنان بعد صيف العام ١٩٨٢، لكن لم يقم بالتجربة سوى اولئك الذين ارادوا حقيقة ان يقارعوا العدو، بينما وقفت وحدات وتنظيمات فلسطينية عديدة جانباً، وامتنعت غالباً عن ارسال مجموعاتها البشرية ضد الاهداف الاسرائيلية في الشوف والجنوب، لكنها هي نفسها التي زحفت بدروعها